

مدينة قسنطينة القديمة، تراث عمراني مهدد بالزوال

أ. آسيا ليفتة د. إبراهيم بن لخلف

جامعة قسنطينة 3

ملخص

تعتبر مدينة قسنطينة القديمة من أهم المعالم العمرانية الإسلامية في الجزائر، بل ومن أجمل المدن في العالم الإسلامي. لكن لم يتبق من هذا المعلم العمراني الإسلامي الهام سوى الجزء السفلي من مدينة قسنطينة التي تسمى اليوم "السويقة" وبعض البؤر المبعثرة داخل المدينة الاستعمارية، بعد أن اقتطع الفرنسيون بين سنتي 1840 و 1870 الجزء العلوي منها. غير أن مدينة قسنطينة القديمة لا تزال تعاني إلى اليوم من تدهور شديد في نسيجها العمراني بعد ما فقدت نحو ثلث بناياتها منذ استقلال الجزائر سنة 1962 وأما الباقي فهو مهدد بالانهيار رغم تصنيفها ضمن التراث الوطني الجزائري منذ 1990.

نيتنا أن نبرز من خلال مقالنا هذا أهمية مدينة قسنطينة القديمة، كتراث عمراني إسلامي وشاهد على تقاليد وثقافة المجتمع الحضري المحلي وكجزء حي من الذاكرة الجماعية الجزائرية والإسلامية، التي نخشى سرعة زوالها إذا لم تسارع الدولة والسكان إلى الاهتمام بها. طبعاً نحن لا ننكر مجهودات السلطات الجزائرية، منذ 1980، للمحافظة على هذا التراث العمراني، والتي باءت كلها للأسف بالفشل، نظراً للهوة الكبيرة بين الخطاب الرسمي والنية المعلنة وبين واقع الميدان.

اعتمدنا في بحثنا هذا على تحليل سلسلة من الصور الجوية لفترات زمنية مختلفة، متممة بتحقيقات ميدانية لمعاينة الحالة العامة للبنائيات في "السويقة". كما أجرينا استجابات مباشرة مع شريحة ممثلة لسكان المدينة القديمة، واطلعنا من خلالها على مدى وعيهم بضرورة المحافظة على مدينتهم كتراث عمراني إسلامي وعلى مدى استعدادهم للمشاركة في أي مشروع يهدف إلى المحافظة على هذا التراث بدءاً بصيانة منازلهم وترميمها.

نأمل أن نساهم بمقالنا هذا في فهم إشكالية المحافظة على التراث العمراني الإسلامي في الجزائر، وإبراز العلاقة بين القيمة التراثية للمدينة وبعد سكانها الثقافي، ومدى تعقد عمليات صيانة وتأمين التراث الحضري وإدماجه ضمن مخطط يشمل التجمع الحضري القسنطيني.

الكلمات المفتاحية:

التراث العمراني الإسلامي، الذاكرة الجماعية، السويقة، قسنطينة

Abstract

The city of Constantine (the old city or « Medina ») is not only one of the most important Islamic urban monuments in Algeria but one of the most beautiful cities in the Islamic world. It is built on a old rock, on an area of 42 hectares. The urban fabric unfolds from the top, the Casbah, to the bottom, the « souika » (or « little market »). The rocky site is surrounded on three sides by a 60-200 metre canyon, which resulted from the erosive work of Rhumel river. This rocky mass was elected as a residential area 2500 years ago and then went on to become a famed climbing city.

Constantine lived through many civilizations (Phoenecian, Numidian, Roman, Vandal, Arab, Ottoman, and French) but stayed on the same site, whole and without interruption until the French cut off the upper part, between 1875 and 1900, to build the colonial city, thus shrinking the Islamic heritage to what is today the « Souika ». However, at present « Souika » suffers from severe urban fabric deterioration, having lost a third of its buildings since independence, while the remaining third is threatened with collapse, despite being classified as Algerian national heritage in 1990.

We aim through this paper to show the importance of the old city of Constantine as Islamic urban heritage, as indication of the traditions and culture of the local urban society, and as part of the Islamic and Algerian collective memory, which will disappear unless the state and the population show more interest in it. Of course we do not belittle the efforts of the Algerian authorities, since 1980, to preserve the

urban heritage, efforts which were not successful on the whole because of the wide gap between the official discourse and the declared intention on one hand and the reality on the ground on the other hand. Our analysis is based on a series of aerial photographs taken at different periods of time, complemented with field investigations of the general state of the buildings in « Souika ». We have also conducted direct interviews with a representative sample of the inhabitants of the old city, which show their awareness of the need to preserve their city as a monument of Islamic urban heritage and their readiness to participate in any project that aims at protecting this heritage, such as the renovation and maintenance of their homes. Our hope is to contribute to a better understanding of the issue of the preservation of the Islamic urban heritage in Algeria. We also hope to highlight the relationship between the value of the city as heritage and the cultural dimension of its inhabitants, and the extent of the complexity of urban heritage maintenance and valuation and its integration within the urban plans of the Greater Constantine compound.

Key words : Islamic urban heritage, collective memory, Souika, Constantine,

مقدمة

مدينة قسنطينة القديمة من أهم المعالم العمرانية الإسلامية في الجزائر، بل واحدة من أجمل المدن في العالم الإسلامي، وقد وصفها الإدريسي أشهر جغرافي عربي، ولويس Louis Régis ريجيس ودوموباسو De maupassant وغيرهم من الجغرافيين والرحالة العالميين. تعاقبت على قسنطينة، ودون انقطاع، عدة حضارات، كالفينيقية والنوميديّة والرومانية والوندالية والعربية والعثمانية والفرنسية، واستمرت في نفس الموضوع. غير أن ما تبقى فيها من معالم الحضارة الإسلامية يعود عموماً إلى الفترة العثمانية، التي دامت حوالي ثلاث قرون (1535-1837) وبقياً من الاستعمار الفرنسي الذي دام قرناً من الزمن و ثلاثون سنة (1837-1962).

تتركز معالم العمران الإسلامي لتلك الفترة في الجزء السفلي من المدينة. التي تسمى اليوم "السويقة" وبعض البؤر المبعثرة داخل المدينة الاستعمارية مثل أحياء الرصيف والجزارين ورحبة الصوف وسوق العاصر، بعد أن اقتطع الفرنسيون بين سنتي 1840 و 1870 الجزء العلوي منها. ولا تزال المدينة تعاني إلى اليوم من تدهور شديد في نسيجها العمراني بعد ما فقدت نحو ثلث بناياتها منذ استقلال الجزائر سنة 1962 وأما الباقي فهو مهدد بالانهيار رغم تصنيفها ضمن التراث الوطني الجزائري مند 1990.

نيتنا أن نبرز بمدخلتنا هذه أهمية مدينة قسنطينة القديمة، كتراث عمراني إسلامي وشاهد على تقاليد وثقافة المجتمع الحضري المحلي وكجزء حي من الذاكرة الجماعية الجزائرية والإسلامية، التي نخشى سرعة زوالها إذا لم تسارع الدولة والسكان إلى الاهتمام بها بطريقة جدية. طبعاً نحن لا ننكر مجهودات السلطات الجزائرية، منذ 1980، للمحافظة على هذا التراث العمراني، كالعمليات الترميمية التي خصت بعض المباني الإسلامية العريقة كالمدرسة الكتانية وقصر أحمد باي، لكن باقي المنازل العربية العادية فإنه مستمر في التداخي الواحد تلوى الآخر. وبغض النظر عن هذه العمليات التي قامت بها الدولة على ممتلكاتها، فإنه جدير بنا أن نتساءل عن مفهوم التراث العمراني عند سكان قسنطينة عامة وعند سكان المدينة القديمة خاصة.

بمعنى آخر هل تمثل المدينة القديمة في مخيلة القسنطينيين تراثاً عمرانياً؟

وهل هناك فعلاً إرادة سياسية للمحافظة على هذا التراث العمراني العربي الهام؟

يبقى أن نعرف كيف يمكن المحافظة على تراث لا يزال مسرحاً لحياة اجتماعية واقتصادية كثيفة، ومن هم الفاعلين الذين يدافعون عن المدينة القديمة ويحاولون المحافظة عليها.

1. مدينة عثمانية عمرها أكثر من ثلاث قرون

إكتسبت مدينة قسنطينة شهرتها بفضل نوعية موضعها واحتوائها على معالم تاريخية عديدة إلى جانب كونها عاصمة لبابلك الشرق. وتعود أصول البنايات العثمانية الحالية إلى مطلع القرن السادس عشر، حيث شيّدت على ذات الموقع الصخري العتيق الذي نشأت عليه المدينة. تمتد المدينة فوق هضبة صخرية تنحدر بانتظام من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، ويحيط بها من جوانبها الثلاث خانق، نجم عن عمل وادي الرمال، يتراوح علوه ما بين 60 و 200 م (شكل رقم 1). لا يمكن العبور إلى الصخر سوى من الجهة الجنوبية حيث يربطه شريط أرضي بكدية عاتي. قبل دخول الفرنسيين كانت للمدينة أربعة أبواب، ثلاثة من الجهة الجنوبية، وهي باب الحديد وباب الوادي وباب الجابية، أما الباب الرابع فيقع في الجهة الشمالية ويسمى باب القنطرة. ويسمح جسر بناه صالح باي(1771-1792) سنة 1792 على أنقاض الجسر الروماني، بعبور الخانق.

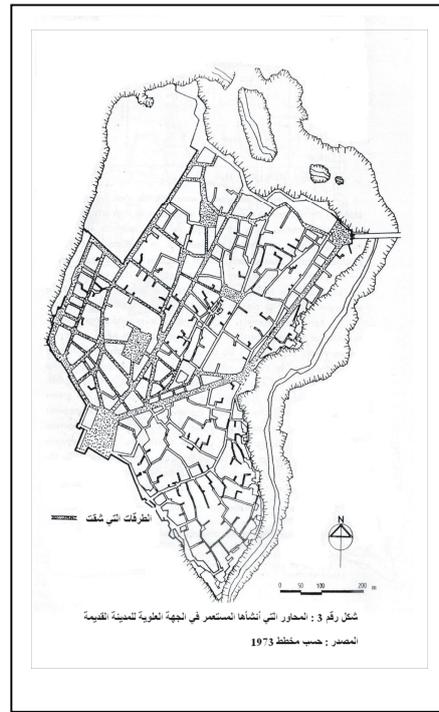
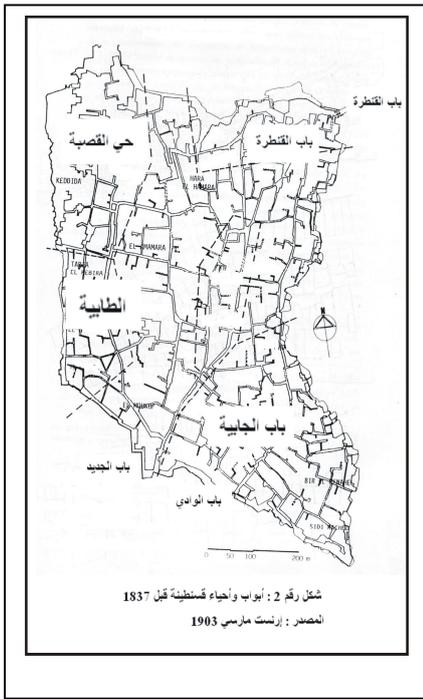
تنقسم المدينة الأصلية إلى أربعة أحياء رئيسية، تقع على أركان الصخر، وهي حي الطابية الذي يقع في الجنوب الغربي وحي باب الجابية الذي يقع في الجنوب الشرقي وحي القصبة الذي يقع في شمال المدينة الغربي وحي القنطرة الذي يقع في شمالها الشرقي (شكل رقم 2 و 3).



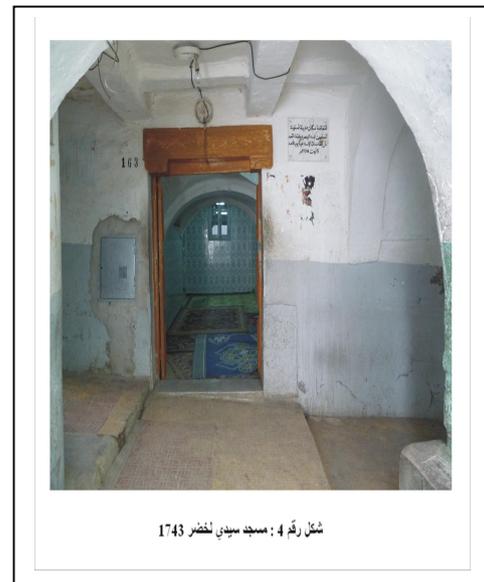
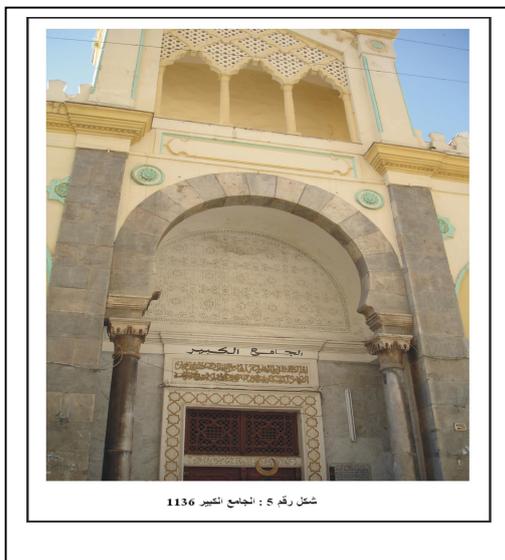
شكل رقم 1 : صورة لمدينة قسنطينة قبل 1830

تنطلق من أبواب المدينة الأربعة شوارع رئيسية عريضة نسبيا لتشق المدينة من الشمال إلى الجنوب قبل تفرعها والتقاءها بشبكة أزقة ضيقة وغير منتظمة. أما المنطقة المركزية، حيث تتركز أهم النشاطات الاقتصادية (تجارة وصناعات تقليدية)، فيحدها شارعان ينطلقان من باب القنطرة ليلتقيان في رحبة الصوف على مسافة 300 م (Pagand Bernard 1989).

تأثرت قسنطينة خلال الفترة الإسلامية بكل الأحداث التي دارت في بلاد المغرب وكانت دائما في الواجهة. ففي القرن الحادي عشر ضمت قسنطينة إلى المملكة الحمادية ثم إلى المملكة الحفصية في تونس في القرن الثاني عشر. واعتبرت قسنطينة خلال القرن الرابع عشر من المدن الأكثر ازدهارا اقتصاديا وثقافيا بعد



تونس وبجاية (فيلاي ولعروق، 1984). ورغم التقلبات التاريخية التي شهدتها الجزائر خلال تلك الفترة، عرفت قسنطينة نوعا من التجديد في إشعاعها خلال القرن الثامن عشر بفضل عمل عدة بايات مثل صالح باي، الذي حقق إنجازات عمرانية كبرى. وكانوا بايات قسنطينة، ولفترة 3 قرون، يتمتعون بنوع من الاستقلالية ونوع من الحكم المطلق على ثلث الجهة الشرقية للبلاد. فخلال حكم الخمس بايات الأواخر (1713-1837) شيدت في قسنطينة أكبر المعالم العمرانية الإسلامية مثل مسجد سوق الغزال (1730) ومسجد سيدي لخضر (1743) (شكل رقم 4) والمدرسة الكتانية (1775) ومسجد سيدي الكتاني (1776) والجامع الكبير (1136) (شكل رقم 5). لازالت كل هذه المعالم قائمة إلى يومنا هذا رغم بعض الترميمات التي شوهت هندستها الأصلية. ولعبت المدارس الإسلامية خلال نفس الفترة دورا هاما في الإشعاع الفكري، بفضل الشهرة العالية التي كان يتمتع بها أساتذتها، والتي كانت تجلب الطلاب من كل أنحاء البلاد. تمسكت النخبة القسنطينية باكتسابها الثقافة الإسلامية الأصيلة بالدين الإسلامي وأحكام السنة النبوية وجاهدت إلى جانب باي لإبعاد الغزاة عن الجزائر وعنابة، وما صمود المدينة أمام هجمات المستعمر الفرنسي (1830-1837) إلا صفحة بطولية في تاريخ قسنطينة.



2. مدينة المنزل العربي التقليدي

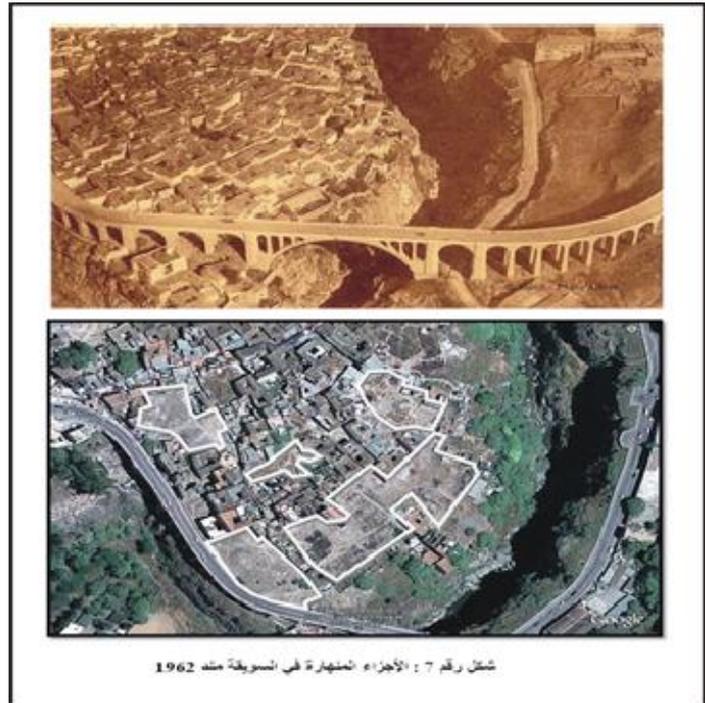
إن الغاية السياسية للمدينة العربية هي إيواء المجتمع الإسلامي في إطار مبني يسمح له بالعيش وفق قيم الدين الإسلامي. والعنصر الأساسي للمنزل التقليدي في بلاد المغرب العربي هو وسط الدار. وهو فناء مركزي مفتوح على السماء يمثل قلب المنزل، وهو مكان مخصص للقيام بجميع النشاطات اليومية العادية من طبخ وغسيل وغيرها من النشاطات اليومية والموسمية، وهو المجال الذي يجمع كل أفراد سكان الدار، لكنه يبقى مجال خاص بالنساء (بن عبد السلام ونكاع، 1990). كما يساعد وسط الدار في تكييف الحرارة لأنه المصدر الوحيد للهواء والتشمس. وربما كان المنزل الذي يحتوي على وسط الدار سابقا للإسلام لكن معنى وسط الدار يرتبط بالمجتمع المسلم (شكل رقم 6). وينقل أندري ريموند (Raymond A.) عن جيرار مارسي (G. Marçais) أن تهيئة مجال خال في المركز ومحاط بغرف كانت سابقة للعالم العربي، فنفس الترتيب كان يميز المنزل الروماني القديم والمنزل الإغريقي، وكأن هذا النمط الهندسي الداخلي يعطي للحياة الإسلامية إطارها المثالي فهي تتكيف طبيعيا مع المفهوم الأبوسي للعائلة والذي يمنح لها وسط مغلقا، وتمنح الأفضلية للسرية في حياة المسلم الخاصة، وبالتالي فهو يستجيب لشرط بقاء الأسرار داخل جدران المنزل، وهذا في إطار الحرامات " البيوت أسرار " فالسكن الإسلامي ومهما كان غنيا يظهر بمظهر خارجي بسيط جدا (Raymond A. 1985). أما مدخل المنزل فهو عبارة عن غرفة مفتوحة على زاوية تدعى السقيفة وهي مجال يحجب ما بداخل الدار. توضع الحياة الجماعية تحت سقف واحد لقواعد مضبوطة وعلى كل فرد الالتزام بها. كما تساعد التجهيزات المشتركة (الحمام ودورة المياه) على تقوية الروابط الاجتماعية حيث تصبح العلاقات أكثر من علاقات حوار.



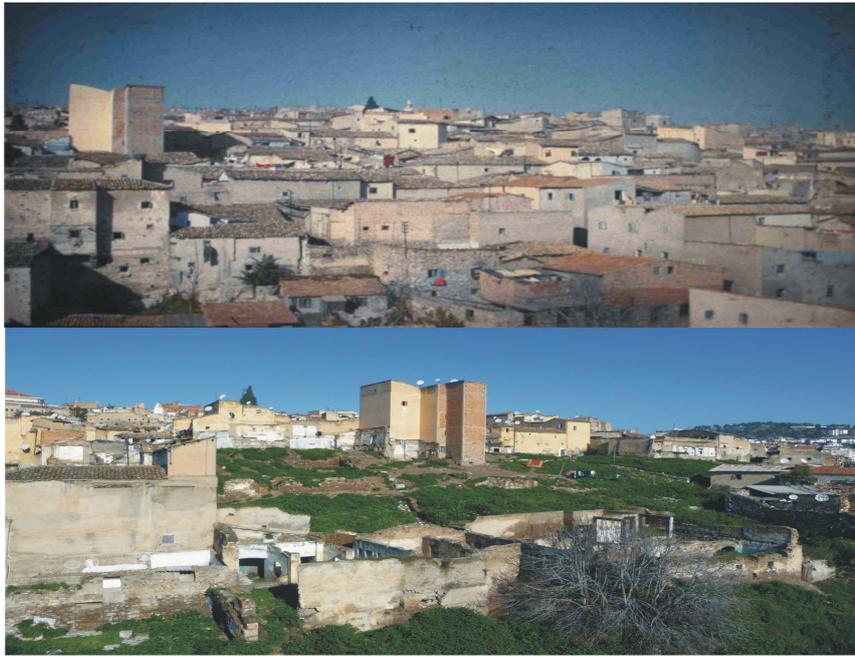
شكل رقم 6 : وسط الدار في المنزل القسنطيني العربي

3. الكثافة العالية للسكان تضغط على المدينة القديمة

كانت المدينة القديمة، منذ 1948، ملجأ لمئات العائلات الجزائرية التي قدمت إليها من المناطق الريفية المجاورة خاصة المنطقة الجبلية للقبائل الصغرى (فيلاي ولعروق، 1984) وفي السنوات الأولى للاستقلال غادرها سكانها الأصليون، وخاصة الملاكين منهم، ليسكنوا الأحياء الأوروبية التي أصبحت شاغرة بعد ما غادرها المعمرون كأحياء المنظر الجميل وبلوزداد وسيدي مبروك. فمنذ ذلك الحين والمدينة القديمة تستقبل النازحين من الأرياف حيث أصبحت البوابة الأولى للمدينة ولا زالت تمثل خزاناً للسكن المؤقت. ومن بين المشاكل التي تعاني منها المدينة القديمة لقسنطينة الكثافات السكانية العالية، حيث بلغت معدلات شغل المساكن 10 أفراد للبيت الواحد. الحالة الرديئة للسكنات بالإضافة إلى انهيار جزء كبير منها، يجعل من إشكالية إعادة إسكان سكانها من الانشغالات الأولى للسلطات العمومية. وتصبح ضرورة إعادة إسكان العائلات المتضررة من أولويات السلطات المحلية. فبأية كيفية تجيب هذه السلطات على طلب ظل يتزايد ويتجدد باستمرار. تستفيد في كل مرة بعض العائلات المتضررة من سكنات جديدة، بينما يبقى البعض الآخر في حالة انتظار طويلة نسبياً، حسب حجم ما توفره الدولة من حصص للسكن الاجتماعي لمواجهة أزمة السكن الحادة في قسنطينة شأنها شأن كل المدن الجزائرية الكبرى. وحسب التحقيقات الميدانية، التي قامت بها الخلية الولائية المكلفة بإعادة تأهيل المدينة القديمة سنة 2008، تضم هذه الأخيرة حوالي 1144 مسكناً بما فيها مساكن النمط الاستعماري الذي عرفت نسبة التدهور فيها 50 %، ويقطنها حوالي 40 ألف نسمة. أما الجزء السفلي منها، فيضم حوالي 309 منزلاً عربياً ويقطنها حوالي 6000 نسمة أي بمعدل 10 أفراد للمسكن الواحد. ويقدر عدد المنازل المتدهورة بحوالي 294 منزلاً، أي ما يمثل 95 % من إجمالي مساكن السوق. بينما لم تكن نسبة المنازل المتدهورة تتعد 65 % عشية الاستقلال (1961). أما المباني التي انحارت فيقدر عددها بـ 418، تقع كلها في الجهة السفلية من السوق مثلما يوضحه الشكل رقم 6 والشكل رقم 7. كما تلعب طبيعة الملكية العقارية السائدة دوراً هاماً في عملية صيانة المباني، حيث تمثل الملكية الخاصة أكثر من 72 % من هذا التراث العمراني الإسلامي، علماً أن أكثر من 90 % منها عبارة عن ملكية جماعية يشترك فيها كل الورثة، مما يعقد أكثر عملية الصيانة ويصعب تدخل السلطات العمومية خاصة وأن نصف المساكن مؤجرة.



شكل رقم 7 : الأجزاء المتدهورة في السوق منذ 1962



شكل رقم 8 : قسنطينة سنة 1963 (1) وقسنطينة سنة 2010 (2)

لذا فإن إشكالية إعادة تأهيل السوق تعود في كل مرة إلى الواجهة، بل لم تغادر الخطاب السياسي في قسنطينة، وكانت موضوع العديد من الملتقيات العلمية. والملاحظ أن عمليات ترحيل سكان المنازل المنهارة تعاد، في كل مرة، بنفس الطريقة دون أي تجديد ودون استخلاص نتائج فشل العمليات السابقة أو بمعنى آخر دون تحقيق نتائج ملموسة. وتمت آخر عملية ترحيل السكان سنة 2008 وقد مست حوالي 100 عائلة، أعيد إسكانها بالمدينة الجديدة علي منجلي بعد أن تم تهدم سكانها المنهارة لتفادي شغلها من طرف عائلات أخرى. يدل تكرار مثل هذه العمليات على غياب سياسة واضحة للمحافظة على هذا التراث العمراني الإسلامي الهام. في حين يفقد النسيج العمراني للسوق انسجامه يوما بعد آخر، بسبب انهيار المنازل طبيعيا وعمليات التهدم التي تقوم بها السلطات العمومية بطريقة استعجالية، ضف إلى ذلك إشكالية تشويه الشكل المعماري التقليدي التي تعاني منه البنايات بسبب التغييرات التي أدخلها السكان على الواجهات (شكل رقم 9).

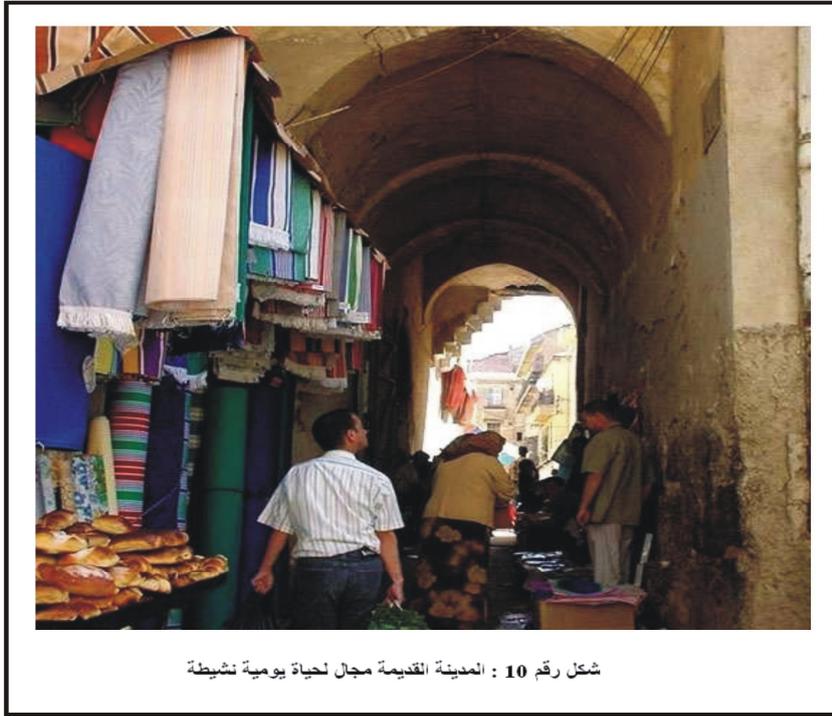


شكل رقم 9 : ترميم مشوه للواجهة الأصلية للبنائية

4. مفهوم التراث العمراني في الجزائر

يساعد التراث العمراني لمجتمع ما على تصور تاريخه وعلى تقاسم قيم وممارسات جماعية شتى. كما يفيد الحفاظ على التراث العمراني في تأهيل الذاكرة وبناء هوية عمرانية حول القيم التي يحملها هذا التراث. فالمحافظة على التراث يعني إبقاء القيم المشتركة حية ليستفيد منها كل سكان المدينة وأحسن طريقة للمحافظة على التراث العمراني هو شغله. يعني أن التراث عندما يكون مسكونا تصبح فكرة المحافظة عليه مسؤولية اجتماعية يشترك فيها كل السكان ومن ثمة يصبح هذا التراث المشترك بمثابة ثروة ومصدر للتنمية المحلية (David, 1994). فعلى ضوء هذه المفاهيم البسيطة نتساءل عن حال المدينة القديمة لقسنطينة اليوم بالنظر إلى واقعها كمجال حياة يومية كثيفة، (شكل رقم 10) وهل هي مجرد حي عريق في المدينة؟ الواقع أن السوق ليست حيا عاديا كباقي أحياء المدينة رغم التدهور الذي يهدد وجودها حيث تبقى في المخيلة الجماعية أصل المدينة وذاكرتها وهويتها العربية الإسلامية. وهي إحدى المعالم الأساسية لمعنى المدينة وشاهد على ماضي المجتمع الحضري الذي هو مفخرة سكان قسنطينة.

تشهد المدينة القديمة حياة نشطة وديناميكية تصونها، وكأنها فقط مجال للحياة اليومية والنشاطات الاقتصادية وليست كتراث عمراني. والظاهر أن مفهوم التراث الذي يرى من الخارج وبإمكاننا الاستمتاع به لا يطابق هذا الواقع اليومي. فهل تعتبر هذه الأماكن الحية تراثا لدى الأجانب فقط وليست كذلك لدى سكانها؟ وبالرغم من تميز إطارها المعماري، والذي لا يُنظر إليه على أنه كذلك، فهل يمكننا الحديث عن وجود تراث عمراني؟ وإذا كان كذلك، كيف لا ينظر إليه على ذلك النحو معظم الذين يعيشون وسطه بطريقة عادية كل يوم؟ ما هو تعريف التراث بين ما هو مادي (البنائيات) وبين ما هو غير مادي كالممارسات وعادات المجتمع؟. الحقيقة أن هناك تطابق بين هذا المجال القديم والوظائف التي تدور فيه حاليا. ويمكن اعتبار هذه الأماكن تراثا مضاعفا، لأن أشكالها وأحجام بناياتها وفنها المعماري لا يزال قائما بمعية سلوكات وممارسات سكانها التقليدية، التي لاتزال الأجيال تتوارثها عن بعضها البعض؟ أليس إيجابيا أن يتلاءم هذا التراث العمراني الإسلامي العربي، وكذا هذه الممارسات اليومية، وهو يتحول دون أن يهدم ليساير تطور الحياة ويبقى مركز المدينة وقلبها النابض؟ أليس أفضل من أن تكون مدينة قسنطينة القديمة تراثا قائما بدون حياة ولا روح؟ فالتراث بالنسبة لمدينة قسنطينة القديمة يكمن في الممارسات وفي نمط حياة متمسكة بعاداتها وتقاليدها أكثر مما هو في البنائيات والجدران. إن التراث هو تفاعل بين المجال والممارسات؟ وفي هذا الإطار، علينا أن نعيد النظر في كيفية تصنيف وحماية ما هو تراث، لأن أصل هذا التراث هو طبيعته الحية وديناميكيته وتطوره وقدرته على التكيف. لذا لابد من نقطة توازن بين عمليات الصيانة والمبادرات الخاصة، إذا كانت هذه المبادرات تخدم التغيير (دون أي تهديم) بالمحافظة على هذا التراث. إننا نعتقد بأن التراث شيء تتأمله من بعيد، وهو شيء ثقافي وجميل، وذلك هو التصور الذي يقرنا أكثر مما هو آثاره ويبعدنا عن مفهوم التراث (David, 1994).



شغل رقم 10 : المدينة القديمة مجال حياة يومية نشيطة

أما من حيث الشكل العمراني، يعتبر المختصون مدينة قسنطينة القديمة نموذجا عمرانيا عربيا إسلاميا ضمن المدن العربية العتيقة، وذلك لانسجام أحجامها المعمارية وموضعها الفريد، الذي يبقى خلابا على الدوام، رغم ما تعانيه هذه المدينة اليوم. لقد نجحت عدة آثار سلبية عن التأخر في الاعتراف بضرورة المحافظة على التراث العمراني في الجزائر. فإذا كانت المدينة القديمة قد استفادت من عدة دراسات منذ بداية الثمانينات (مخطط إعادة تأهيل المدينة القديمة، Master Plan وغيره) فإنها لم تصنف كتراث عمراني وطني إلا سنة 1990. وعليه فإن الدولة ملزمة اليوم بالمحافظة على هذا التراث وحمايته بوضع إطار قانوني خاص وانتهاج تسيير خاص، بإشراك السكان المعنيين (خاصة الملاكين منهم) في كل المشاريع التأهيلية لتشجيعهم على المساهمة في عمليات الترميم، وتؤكد التجارب، في مجال صيانة التراث والمحافظة عليه، التي قامت بها الدول الغربية على أهمية دور الجمعيات السكنائية في إنجاز عمليات الترميم، خاصة وأن مثل هذه الجمعيات تضم عناصر متنوعة من المواطنين العاديين والعائلات البورجوازية والمتقنين والمختصين في فن العمارة والمؤرخين والفنانين وغيرهم. وقسنطينة القديمة لا تفتقر إلى مثل تلك الجمعيات التي تدافع عنها، فهناك مثلا: جمعية الدفاع على الصخر العتيق وجمعية أصدقاء متحف سيرتا وغيرهما. تشارك هذه الجمعيات في تحسيس السلطات والسكان بضرورة الحفاظ على المدينة القديمة. ففي سنة 2005 مثلا، قامت السلطات المحلية بتهدم جزء كبير من السوقية قصد منع العائلات التي استفادت من سكنات جديدة من العودة إليها كما هو الحال بالنسبة للأحياء القزديرية، ولولا تدخل وزارة الثقافة، بفضل تظنن هذه الجمعيات وبعض أبناء قسنطينة، التي أمرت بتوقيف العملية، لثم تهدم هذا التراث. أما أن تعمد السلطات المحلية إلى اقتطاع أجزاء كبيرة من مساحات المدن القديمة، التي تعتبرها "غير لائقة"، متذرة بضرورة الاستفادة من التقدم التقني والرقمي الاجتماعي، فذلك مساس بالذاكرة الجماعية والقضاء على روح المدينة. إن إرادة السلطات على تحديث العمران على حساب التراث العمراني بهذه الطريقة إنما هو هروب للأمام.

خاتمة

يرى الكثير من السكان أن حالة المدينة القديمة رديئة ومتدهورة وترمز إلى أزمة السكن، ويرجع هذا الوضع إلى تحول محتواها الديموغرافي من سكان الحضر الأصليين إلى سكان قدموا من الأرياف. كما ينظر للمدينة القديمة على أنها مجال حضري يصعب تسييره فضلا عن كونه غير ملائم لحياة عصرية ومریحة، بسبب صعوبة التنقل ونقص التجهيزات العامة مثلا. ويقترح أصحاب هذا الرأي، المحافظة على بعض المعالم الرمزية والقيام بعمليات تجديد حضري يمس كل أحياء المدينة. غير أنه، وإن كانت هذه الفكرة هي السائدة لدى أغلبية سكان قسنطينة (Boumaza Nadir, 2007)، سيقى أن هؤلاء السكان مختلفون باختلاف مستوى الدخل الفردي واختلاف أقدميتهم في المدينة واختلاف نوعية سكناتهم، خاصة وأن أغليبيتهم يرغبون في الحصول على سكن حديث ومریح. في حين تدافع أقلية منهم على المدينة القديمة وتعتبرها الإطار الرمزي والمادي الواجب حمايته قصد الرجوع إلى القيم العربية الإسلامية. وما المدينة القديمة لقسنطينة سوى نموذجاً من المدن العربية التي تعاني من التهميش بسبب طبيعة المجتمعات ومؤسساتها والعلاقة بين ما هو حديث وبين ما هو تقليدي.

بالنسبة للعديد من المختصين، لا يكفي أن يكون للتراث العمراني معنى لدى جماعة من السكان أو أن يكتسب هذا التراث شرعية علمية، بل لا بد أن يكتسب قيمة اقتصادية أيضا. وعليه فمدينة قسنطينة القديمة لها من المميزات ما يكفيها لكي تثن تراثها اقتصاديا، خاصة وأنها ما زالت تحتفظ بدور المركز المنشط للجمع القسنطيني الكبير. ثم إننا نقر أن اقتصاد المدينة المحلي لا يعتمد سوى على التجارة وبعض الحرف التقليدية وغياب شبه تام للسياحة، هذا القطاع الذي يحتاج إلى تطوير كي يصبح مورداً مكتملاً للنشاطات الاقتصادية الأخرى.

المراجع

بن عبد السلام عقيلة، نكاع نذيرة (1990)، استعمال الفضاء في البيت التقليدي القسنطيني، مذكرة ليسانس في علم الاجتماع التربوي الثقافي، جامعة قسنطينة

فيلاي عبد العزيز، لعروق محمد الهادي (1984)، مدينة قسنطينة دراسة التطور التاريخي والبيئة، دار البعث للنشر، الطبعة الأولى، الجزائر

Boumaza, Nadir (2007), Constantine, passé, présent et devenir, Séminaire Interntional 02, 03.04 juillet 2007, Constantine

David, Jean-Claude (1994) Le patrimoine, architectures et espaces, pratiques et comportements : les souks et les khans d'Alep, Revue du monde musulman et de la Méditerranée, Année 1994, Volume 73, Numéro 1

Mercier, Ernest (1903), Histoire de Constantine, J. Marie et F. Biron, Constantine

Pagand, Bernard. (1989), La Médina de Constantine de la ville traditionnelle au centre de l'agglomération contemporaine, CIEM, Etudes Méditerranéennes, Fascicule 14, Université de Poitiers

Raymond, André (1989), Grandes villes arabes à l'époque ottomane, Sindbad, Paris

Régis, Louis (1880) Constantine, voyages et séjours, Calmann Lévy Editeurs, Paris